

(المحاضرة الثالثة)

غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨

عندما نشبت الثورة الفرنسية واصبحت الطبقة الوسطى (البرجوازية) هي الحاكمة على فرنسا الجديدة قضى هؤلاء على التمرد الداخلي والخارجي المرتبط بالإقطاع والملكية. وبعد ان استقرت الامور اخذت تتطلع الى خارج فرنسا لتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية وكان غزو نابليون لمصر سنة ١٧٩٨م جزءاً من خطة فرنسية:-

١- لضرب النفوذ البريطاني.

٢- السيطرة على طريق الهند.

٣- تأسيس امبراطورية فرنسية في الشرق.

ابحر الاسطول الفرنسي بقيادة (نابليون بوناپرت) من ميناء (طولون). ووصل الى الشواطئ المصرية في اواخر شهر حزيران عند مدينة الاسكندرية.

وفي الاول من تموز عام ١٧٩٨ بدأ انزال الجيش الفرنسي بالقرب من الاسكندرية فواجه مقاومة عنيفة من السكان المحليين لكن نابليون استطاع من دخول الاسكندرية وواصل زحفه نحو القاهرة.

واجه جيشه صعوبات جمة لشدة الحر والماء والغذاء والمقاومة من افراد العشائر العربية المنتشرة على الطريق بين الاسكندرية والقاهرة. وعند اهرام الجيزة جرت معركة (امبابة) وانتهت بهزيمة حكام مصر من المماليك وتكبدوا خسائر جسيمة خلافاً للفرنسيين الذين كانت خسائرهم طفيفة. لذلك اضطرت القاهرة للاستسلام فدخلها الفرنسيون في ٢١ تموز ١٧٩٨م.

عانت مصر التي ظلت ولاية عثمانية منذ احتلال السلطان سليم الاول لها سنة ١٥١٧م وحتى سقوطها بيد الفرنسيين من فوضى سياسية وتخلف اقتصادي وجمود ثقافي.

وفي الوقت الذي كانت جحافل نابليون تطرق ابواب القاهرة كان يتنازع على الحكم فيها اميران من امراء المالك وهما (ابراهيم بيك ومراد بيك) وبعد احتلال القاهرة فر ابراهيم بيك بجيشه الى شبه جزيرة سيناء وانسحب مراد بيك الى الصعيد وترك الشعب المصري بمواجهة الغزو الفرنسي.

وجه نابليون منذ اول نزوله على مصر نداءً للشعب المصري مزج فيه افكار الثورة الفرنسية من حرية واخاء ومساواة بتهديدات القوي الغاصب وتلاعب بعواطف الناس ومشاعرهم الدينية. فتظاهر بحبه الاسلام وزعم انه مسلم يغار على الاسلام ويحرص على حمايته وانه جاء محرراً لا فاتحاً وانه عدو المماليك الذين استبدوا بالسلطة وظلموا المصريين ونهبوا خيراتها. وانه امين على ارواح الناس وممتلكاتهم.

ووعد باستمرار المشايخ والعلماء والقضاة في مناصبهم، ولكنه هدد بشكل صارم كل من يقاوم القوات الفرنسية وقال بان كل قرية تقاوم الجيش الفرنسي سيكون نصيبها التدمير.

وبعد احتلال القاهرة بأيام جاءت لنابليون اخبار تفيد بتحريك الاسطول البريطاني بقيادة (نلسون) الذي حطم الاسطول الفرنسي في (موقعة ابي قير) قرب الاسكندرية وكان لهذه المعركة اثر كبير في القضاء على المشروع الفرنسي بأرسال حملة للهند لإخراج البريطانيين منها. كما كانت نتائج هذا التدمير خطيرة على الجيش الفرنسي الموجود في القاهرة إذ قطعت الصلة بينه وبين فرنسا ذاتها. فاضطر نابليون الى الاعتماد على مصر في تموين جيشه ولم تقف اثار هذه المعركة عند هذا الحد بل جعلت السلطان العثماني يعقد حلفاً مع روسيا عدوة فرنسا آنذاك، كما تحالف مع بريطانيا على اساس ضمان كل من الدولتين سلامة الدولة الاخرى. وكان على نابليون ان يتفرغ لمواجهة الاخطار الخارجية فضلاً عن الاوضاع الداخلية التي تمثلت بازدياد المقاومة المصرية لقوات الغزو وقيام ثورة سنة ١٧٩٨م ضد الفرنسيين.

أ- ثورة القاهرة الاولى ١٧٩٨م

من أسباب هذه الثورة تدمير الشعب المصري من إجراءات الفرنسيين الاقتصادية والمالية عندما أراد نابليون استغلال مصر لإعالة جيشه وتمويله ولذلك عمد الى تحصيل الأموال بمختلف الوسائل ففرض ضرائب ثقيلة على الأراضي والعقارات والمهن وغيرها.

صار الجامع الازهر ميدانا من ميادين الثورة ضد الغزو الفرنسي فسرعان ما تشكلت فيه لجان لتنظيم المقاومة، انظم اليها المشايخ والعلماء وزعماء البلاد واخذ الخطباء يحرضون الناس على الثورة ويثيرون شكوك حول أعضاء ديوان القاهرة الذي شكله نابليون انتهب زعماء الثرة فرصة تدمير الشعب من الضرائب الجديدة فاعلنوا العصيان المدني في ٢١ تشرين الأول ١٧٩٨ فأقفلت الدكاكين وتجمع الألوف من أبناء الشعب وساروا في تظاهرة كبيرة الى مركز القيادة الفرنسية لإعلان تدميرهم من الضرائب الجديدة وصارت القاهرة في ذلك اليوم في وضع لم تالفه من قبل واخذت الأسلحة تظهر في كل مكان وقد تقدم الثوار الى المخافر الفرنسية واشتبكوا مع الجنود

اما نابليون فقد اسرع في اتخاذ إجراءات سريعة وامر جنوده بأطلاق الرصاص على الثائرين وضرب الجامع الازهر بالمدافع وهدمت الكثير من الدور على سكانها إزاء القسوة التي واجه بها نابليون الثوار الذين فقدوا اكثر من أربعة الاف شهيدا تقدم عدد من المشايخ الى نابليون وطلبوا منه وقف القتال وبعد فشل الثورة فتك الجنود الفرنسيين بالمواطنين ودخلوا الازهر وربطوا فيه خيولهم ونهبوا ما فيه واعدموا كثيرا من الناس بدون محاكمة.

لقد كان من نتائج الثورة شعور نابليون بانه يعيش على ارض ترفض العدوان وتقاومه وصار كل فرنسي لا يستطيع السير الا ومعه سلاح وحاول نابليون زرع بذور الفرقة بين المسلمين والاقباط شانه بذلك شان كل مستعمر يلجا الى أسلوب التفرقة ولكن الشعب المصري قطع على نابليون سبيل ذلك فاعلن تمسكه بمبدأ النضال ضد المستعمر.

ب- ثورة القاهرة الثانية ١٧٩٩ وجلاء الفرنسيين من مصر:

مها بقسوة شديدة وسميت بثورة القاهرة الثانية ي ١٧٩٩م عندئذ شعر (كليبير) بعدم قدرته على البقاء في ارض مصر فبعث برسالة الى الحكومة الفرنسية طالبا منها انهاء حالة الحرب بين الدولتين وبدأت المفاوضات الفرنسية العثمانية وانتهت بعقد (معاهدة العريش) في كانون الثاني سنة ١٨٠٠ وخلصتها الموافقة على جلاء الفرنسيين بكامل أسلحتهم وامتعهم على سفن فرنسية وعثمانية بلا قيد او شرط ولكن الحكومة البريطانية تدخلت وطلبت تسليم الفرنسيين واسلحتهم كأسرى حرب فرفض الفرنسيون ذلك لكن بعد سنة ١٨٠١ تغير الموقف في اوربا عندما بدأت خطوات الصلح بين بريطانيا وفرنسا تسير بسرعة فتم الاتفاق على جلاء الجيش الفرنسي بكامل أسلحته على سفن بريطانيا وبعد الجلاء المذكور نجحت المفاوضات البريطانية - الفرنسية وعقد صلح أميان في ٢٧ اذار سنة ١٨٠٢.

• نتائج واثر الغزو الفرنسي على مصر والوطن العربي:

على الرغم من فشل الغزو الفرنسي الى انه ترك اثار مهمة في مصر والوطن العربي كله ولعل من ابرز تلك الاثار ان الغزو الفرنسي ايقظ الشعب المصري من سبات طويل قضاه في ظل السيطرة العثمانية واشعره الغزو بشخصيته المتميزة التي تمثلت في ثوراته المستمرة ضد الحكم الفرنسي والدفاع عن حريته وكيانه.

ان الفرنسيين كمستعمرين هدفهم استغلال البلد الذي يحتلونه استغلالا كاملا وتسخير إمكاناته في خدمة تطورهم الرأسمالي الإنتاجي لذلك فان نابليون اصطحب معه الكثير من العلماء والمؤرخين والجغرافيين والجيولوجيين والأطباء والفنانين والفلكيين واللغويين لدراسة مصر من كافة النواحي الجغرافية والتاريخية والزراعية لكي تنظم في ضوء ذلك عملية استغلال البلاد وقام هؤلاء جميعا بوضع دراسة شاملة وظهرت نتيجة ابحاثهم ودراساتهم في ٢٠ مجلدا في كتاب (وصف مصر).

انشأ الفرنسيون في القاهرة مطبعة عربية والاحرة فرنسية لتحقيق نواياهم الاستعمارية في التسليط الثقافي الأجنبي، كما فكر نابليون في ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر لاستغلاله في حملاته الاستعمارية فعهد بذلك الى (المسيو لوبيير) رئيس مهندسي الطرق والجسور في فترة الغزو ففضى هذا سنتين في دراسته ورفع تقريرا الى نابليون تضمن خطأ

ان البحر الأحمر يعلو على البحر المتوسط بمقدار تسعة امتار وقد نشر هذا المشروع في كتاب وصف مصر واطلع عليه فيما بعد (فرديناد دي لسييس) واعجب به وصمم على تحقيق المشروع بشق قناة في برزخ السويس اما الملاحة العالمية سنة ١٨٦٩.

لم تكن البلدان العربية غائبة عن معركة مصر مع الغزاة الفرنسيين فمئذ الأيام الأولى للغزو التجأ الى بلاد الشام أولئك الذين رفضوا التعاون مع الفرنسيين فجعلوها مركزا لنشاكلهم ومقاومتهم وكان نابليون يعتقد كلما اشتدت المقاومة من حوله او فوجئ بهجوم انه مدد من الشام وقد كشفت التحريات الفرنسية عن ثورة القاهرة الأولى عن وجود مراسلات كثيرة بين شخصيات شامية وقيادات الثورة لتنظيم المقاومة مما سبب اعدامهم وما ان اتجه الغزو الفرنسي الى الشام حتى وجد الفرنسيون امامهم الثوار المصريين وعلى راسهم عمر مكرم جنبا الى جنب مع السوريين في سوريا وبدل فشل الغزو الفرنسي على سوريا ان الغزو لم يكن يواجه الحاميات العثمانية فحسب بل كان للشعب السوري هناك دور كبير في انسحاب القوات الفرنسية الغازية.

وعندما وردت على الحجاز اخبار احتلال الفرنسيين لمصر غضب اهل الحجاز وسخطوا سخطا شديدا على المستعمرين واخذ الشيخ الكيلاني وهو عربي من المغرب يعظ الناس يدعوهم الى النضال ضد المحتلين الفرنسيين وقد اجتمع معه نحو ستمائة من المتطوعين ركبوا الى البحر من ميناء القصير مع من انضم اليهم من اهل يتبع وغيرها ثم انضم اليهم قسم من اهل الصعيد واشتبكوا في وقائع مشهورة مع الفرنسيين ولا عجب في ان يحمل الشعور القومي شابا ثوريا من حلب اسمه سليمان الحلبي من طلبة الازهر على اغتيال القائد الفرنسي الجنرال كليبر عندما رأى الفرنسيين يقتحمون الازهر بخيولهم منتهكين حرمة والشعور نفسه دفع العراقيين للإسهام في تخلص مصر من الاحتلال الفرنسي فلم يقتصر الامر على التبرع بالمال بل ان الكثير من العراقيين لبوا نداء الواجب وتطوعوا للدفاع عن مصر العربية فقد ذهبت مجاميع من العراقيين الابطال الى مصر لتقاتل القوات الفرنسية المعتدية وعند عودتهم الى العراق كرموا آنذاك تقديرا لشجاعتهم.

لقد اثرت الحملة الفرنسية على تاريخ مصر الحديث والمعاصر حيث بدأت مصر بدخول الحياة النهضة الحديثة واثرت في بقية اقاليم العالم العربي. على الرغم من فشل الحملة على مصر وبلاد الشام الا انها حققت عدداً من النتائج منها:-

١. شكلت الحملة الفرنسية عامل صدمة وتنبية كبير للشعب العربي في مصر بسبب السبات الطويل الذي كانت ترزح تحته بفعل الحكم لعصور طويلة من حكم المماليك.

٢. تعد الحملة الفرنسية اول تحدي استعماري - غربي تتعرض له مصر.

٣. اثرت الحملة الفرنسية في ايقاظ الشعور العربي القومي وتعاطف الاقاليم العربية والاسلامية ونصرتها ضد الغزو الغربي وبالأخص من قبل بلدان المغرب العربي.

٤. اتاحت الحملة الفرنسية للمصريين التعرف على ظواهر التفوق العلمي الاوربي الذي لم يكن موجودا فيها لتكون فيما بعد سبابة بالعلوم والثقافة على اقرانها من العالم العربي.

٥. قامت الحملة الفرنسية بالعديد من الاعمال في مصر اهمها:

أ- تأسيس مجمع علمي علم ١٧٩٨م وكان له الاثر البالغ في تقدم العلوم والمعرفة والدراسة والبحوث.

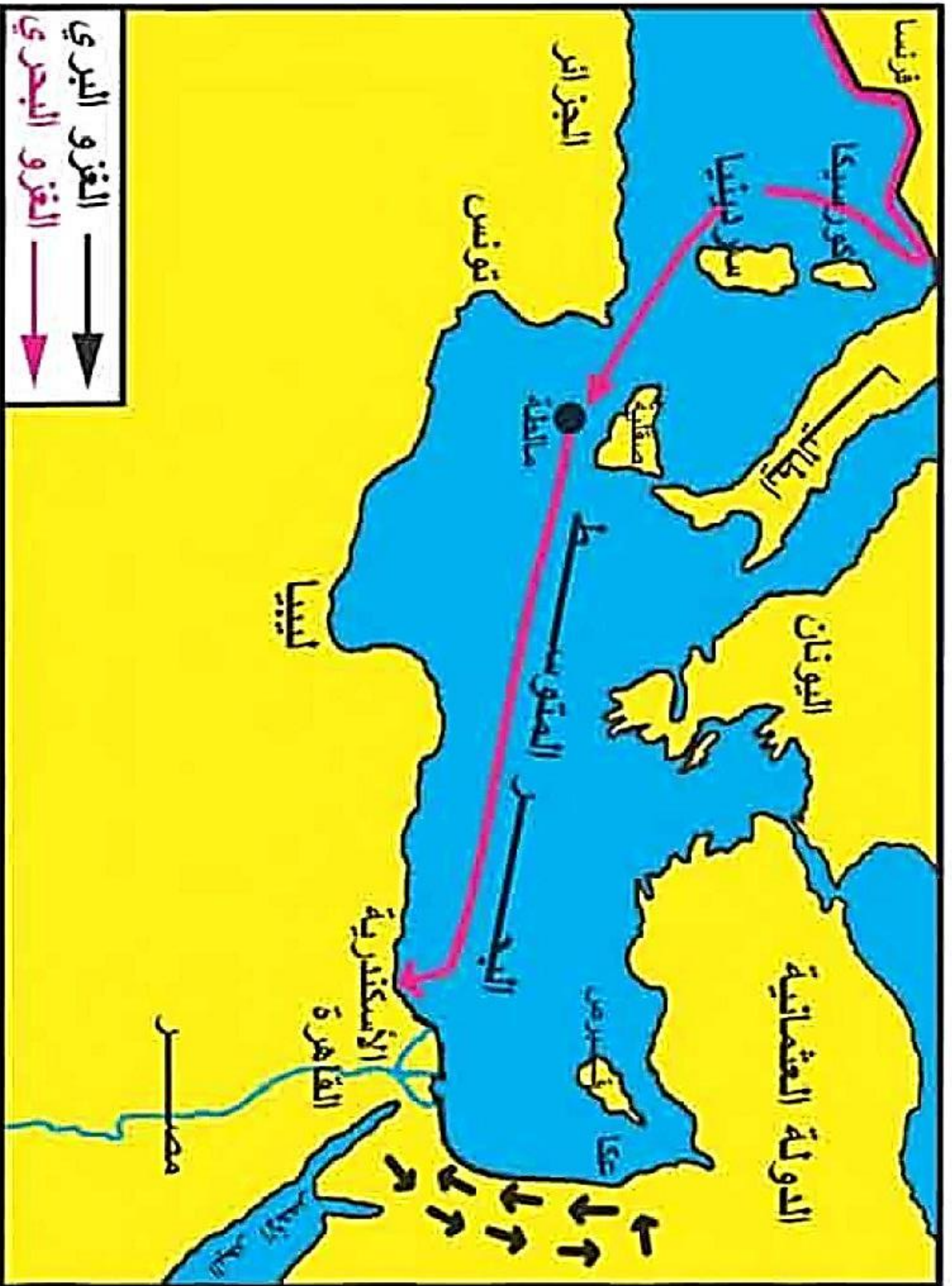
ب- تأسيس مطبعة عربية واخرى فرنسية وهما أول مطبعتين اسستا في العالم العربي.

ت- العثور على (الحجر الرشيد) حيث نجح العالم الفرنسي (شابلون) من حل رموزه وكان بالخط الهيلوغريفي المصري القديم ومن خلاله تمكن العالم من معرفة اسرار وتاريخ مصر الفرعونية وحتى تاريخ حضارات الدول المجاورة.

ث- الاهتمام الكبير بالفنون بجميع الوانها ومن خلال تأسيس مسرح للعروض التمثيلية واقامة دار للأوبرا في قلب القاهرة.

ج- تعتبر الحملة صاحبة فكرة ربط البحرين المتوسط والاحمر بقناة بينهما فقرر نابليون تنفيذ المشروع لكن الفترة التي بقيت فيها القوات الفرنسية على مصر قليلة حالت دون تحقيق حلم المشروع وقد استفاد بعدهم حكام مصر عندما نفذوا مشروع القناة علم ١٨٦٩م من الدراسات والمخططات التي تركها الفرنسيين بعد مغادرتهم مصر.

ح- اهتمت الحملة بتطوير وانشاء المستشفيات والمدارس واناة الشوارع العامة الخ... .



الغزو الفرنسي لمصر وبلاد الشام

